مشكلتنا

أزمة في القيادة والثقة والاختصاص

لا يشك أحد من المفكرين أن المسلمين في بلادنا اليوم أبصر بحقيقة إسلامهم من أي عصر (قريب) مضى، وأن أهله اليوم أكثر شيعة وأعمق وعياً، وأن شبابه أشد حماساً له وأقوى تمسكاً به، وليس أدل على ذلك مما تراه من الفرق بين مساجد اليوم ومساجد الأمس؛ فمساجد اليوم حافلة بالفتية والشبان يغشونها في أوقات الصلاة وفي ساعات المواعظ والدروس، وقد كادت تكون من قبل وقفاً على الكهول والشيوخ.

ولعل من أشد آثار هذا الاختلاف بين الأمس واليوم أن عقول المسلمين اليوم بصيرة بمكر الكائدين للإسلام والمتربصين به، وقد كانت من قبل تبصر الكيد ولا تعرف له مصدراً، وتحس بالمكر ولا تعرف شيئاً عن الماكرين، لقد تم تبصُّر معظم ما تم من المؤامرات على المسلمين فيما مضى (سواء من حيث الدس في حقائقهم العلمية أو التهديم لِنُظمهم الاجتماعية أو السياسية) في غيبوبة عن يقظة المسلمين وانتباههم إلى ذلك، وإنما كان الذين أسعفهم الحظوظ في التنبه لتلك المؤامرات، من الخاصة الذين يعدون على أصابع اليد الواحدة... لقد مرت معاهدة لوزان على أسماع المسلمين يوم كانت بريطانيا غارقة إلى قمة رأسها

في إعداد المكائد الجسيمة للإسلام دون أن تدرك إذ ذاك أيُّ جمهرة في المسلمين شيئاً عن تفاصيل هذه الخطط وما وراءها، والقلة النادرة الخاصة التي كانت تراقب شيئاً من هذا وتفهمه لم تكن تبلغ معشار العامة من الشبان المسلمين الذين يدركون اليوم كل صغيرة وكبيرة يحتوي عليها مثل تلك المعاهدات، بالإضافة إلى يقظتهم البالغة لكل ما يجدّ اليوم من المؤامرات والمكائد، سواء على ألسنة المبشرين والمستشرقين، أم وراء المناورات السياسية والاستعمارية، أم من خلال إطلاق أسلحة الحرب على مجموعة الأخلاق الإسلامية التي بها وحدها تستقر ذاتية هذه الأمة بوصفها أمة عربية أو إسلامية.

غير أن الإسلام - مع هذا كله - هو اليوم أقل تأثيراً في المجتمع والسياسة والحكم من أي عصر قريب مضى، وقد كان من مقتضى النتيجة المنطقية لما ذكرنا أن يصبح أثره اليوم أشد رسوخاً في كل نواحي الحياة من أي وقت آخر...

وهذا ما جعل كثيراً من الناس يتساءل في حيرة وعجب عن سبب هذا التناقض بين المقدمة والنتيجة أو السبيل والغاية.

ومرد هذا الاضطراب العجيب (في عقيدتي) أن المسلمين يعانون اليوم - على كثرتِهم شيعةً وقوتِهم حماساً وعمقِهم وعياً - أزمةً في كل من القيادة، والثقة، والاختصاص.

أما أنهم يعانون أزمة في القيادة، فلأن مميزات القائد المسلم لم تتكامل بعدُ فيمن يُنتظر منه أن يحزم أمر هؤلاء المسلمين على

سبيل واحد، ويصبّ سلوكهم وسعيهم في العمل المتفق عليه، ويردّ الأفكار المنتشرة بين فروع المشاكل والقضايا إلى أساسها الأول ومنبعها الوحيد. ولست أريد من هذا أن أنتقص من قيمة الذين ينشطون في القيام ببعض مهام القيادة والتوجيه الإسلامي في هذه الأيام، بالنسبة إلى الذين خلوا من قبلهم من القادة والموجهين؛ ولكني على يقين بأن وظائف القيادة الإسلامية الناجحة لم تكن تحتاج قبل اليوم إلى أكثر من الإخلاص في السعي والجهد مع قدر كافٍ من العلم والبصيرة، ولذا فقد كانت مهامّ الدعوة لا تكاد تخلو في أي حين عن كثير ممن يستطيعون القيام بشأنها.

ولكنها اليوم - وقد تفتحت أمام المسلمين سبل كثيرة في المذهب والرأي، وتراقصت من حولهم مشكلات كثيرة في شؤون السياسة والمجتمع، وتلاقت عليهم صنوف العدوان من الداخل والخارج - أصبحت تحتاج إلى جانب شروطها القليلة الأولى إلى مزيد من العبقرية في الرأي، وثراء أوسع في الثقافة والعلم، وتحرق أشد على الدين وشأنه، وقدرة على التوفيق التام بين قسوة السياسة والجدال ورقة العبادة والتبتل. وحينما تلتقي هذه الصفات فيمن يتخذ مكان القيادة لهذه الأمة تكون هذه الأزمة قد انجابت.

وربما كان المسلمون في غنى عن توفر القائد الواحد الذي تجتمع فيه كل هذه الصفات، وكان يغني عنه تلاقي فئة من

المصلحين والدعاة تتوافر في مجموعهم هذه المزايا - لو لم يكن المسلمون يعانون مشكلة أخرى وهي الأزمة في الثقة!...

وفي اعتقادي أن مشكلة فقدان الثقة بين جماعات المسلمين اليوم، أهم ما أثمره سعي الكافرين والمستعمرين في هذه البلاد. لقد علموا أن أخطر وأهم عماد لبناء المجتمع الإسلامي المتماسك إنما هو أخوة أهله والثقة الشائعة في أفراده، فانطلقوا يرمون هذا العماد بأخطر ما لديهم من داء... وظلوا يدأبون على ذلك دأبهم حتى غابت الثقة، وتبخرت روح الأخوة، وعادت فئات المسلمين تتقاذف فيما بينها التهم الجارحة والظنون السيئة متمثلة في زعمائها ومفكريها. والثغرة التي تسلل منها إلى المسلمين الكيد في هذا هو إيهام الناس بأن العصمة وحدها هي أساس الثقة فيما بين المسلمين، ومتى كان الناس - من دون الأنبياء والرسل - معصومين عن الخطأ في يوم من الأيام؟

إن الثقة فيما بين المسلمين لا ينبغي أن تكون نتيجة لغير الصدق في الإسلام، فصدق إسلام المسلم هو وحده شرط الثقة به فيما له خبرة به من قضايا المسلمين وشؤونهم. أما الأخطاء في الرأي أو العمل، أو الانزلاق في بعض السيئات واللمم، فما كان شيء من ذلك في يوم من الأيام سبباً لانتزاع جذور الثقة وبزوغ قرن البغض والعداوة، وإنما كان دائماً سبباً في مزيد من التنبه والتناصح ثم التواثق والتعاون.

ولولا انعدام الثقة بين معظم جماعات المسلمين، لأمكن لصفات القيادة الإسلامية التي تحدثنا عنها آنفاً أن تتلاقى في قدر

يسير من الزعماء والمفكرين، ويكون منهم للمسلمين خير قائد أمين ينطلق بهم في سبل العمل والدعوة والإصلاح، غير أن هذه الصفات قد تآكلت مع الزمن - ويا للأسف - باحتكاك التهم والوساوس والظنون.

وهكذا غدت أزمة الثقة بين جماعات المسلمين أهم سبب في إيجاد أزمة القيادة فيما بينهم.

❊ ❊ ❊

وأما أن المسلمين يعانون أزمة في الاختصاص، فإن مَثَلهم في ذلك مثل الرجل الذي كتب عليه أن يستقل بجميع شؤون بيته؛ من تربية الأطفال، وتهيئة الطعام والشراب، وترتيب الأمتعة والأثاث، والسعي لجمع الرزق والمال، فوزع جهده وخبراته بين ذلك كله، ولكن الجهد والخبرة قَصُرتا عن القيام بما لا يطاق فضيّع البيت كله، ولم يحرز شيئاً من جميع ما أراده وسعى إليه!..

إن حال المسلمين اليوم يشبه إلى حد كبير واقع مثل هذا الرجل، إنهم بحاجة إلى من يرعى الإسلام في شؤون السياسة والحكم، وإلى من يهيئ له بناء الفقه والتشريع، وإلى من يحرسه من دس الأعداء والمستشرقين، وإلى من يدعو إليه على الصعيد الشعبي ولدى الحاكمين، ولا ريب أن كل جانب من هذه الجوانب مهمة مستقلة برأسها ينبغي أن يتفرغ لها وحدها فئة من المسلمين في تنسيق واضح منظم.

غير أن واقعنا يشبه ما انتهى إليه أمر ذاك الرجل الذي ابتلي بكل وظائف بيته مجتمعة في وقت واحد!... فنحن نزج أنفسنا مجتمعين في غمار هذه المهام والوظائف الإسلامية على اختلافها وتباعدها في الطبيعة، دون أن نحرز مستوى الاختصاص في واحدة منها فضلاً عن جميعها. ولقد كان من نتيجة هذا أن أفسدنا على أنفسنا السبيل، فبقيت جميع الثغور فارغة رغم تزاحم الجميع عليها، وظلت المشكلات قائمة رغم تسابق الكل إلى محاولة حلها، وبقي المسلمون ضعفاء رغم كثرتهم في العدد وصدقهم في الاندفاع والحماس!...

إن عدم توافر الاختصاص في معظم ما يعالجه كثير من دعاة الإسلام اليوم، هو الذي يجعل القضايا التي يعالجونها تبدو للكثير من الناس وكأنها قضايا نظرية لا أساس جوهري لها!... ذلك لأن معالجتهم لها تصطبغ على الغالب بالصبغة الخطابية وتستمد قوتها من الوجدان والعاطفة، بسبب أن ذلك أقرب طريق لمن تجمعت حول رأسه مشكلات مختلفة عديدة تتعلق بالمجتمع والسياسة والقانون والتاريخ والعلوم، وغيرها، على حين أنه لا يجد الوقت الكافي ولا المعجزة الخارقة اللذين يمكنانه من معالجتها كلها على الوجه الذي يكشف النقاب عن حقيقتها في جلاء وصفاء.

❊ ❊ ❊

لقد دأبت أوروبا سنين طويلة على حرب المسلمين بالقوة والسلاح، فلم تفلح في شيء من ذلك، حتى عمدت بعد ذلك

إلى الحرب الفكرية، وإذا بها تنال من المسلمين ما لم تكن تناله بواسطة جميع جيوشها وأساطيلها ومختلف قواها، فماذا كانت الوسيلة إلى هذه الحرب الفكرية؟ إنها لم تكن سوى اقتسام الاختصاصات... وها نحن أولاء نرى اليوم بأعيننا كيف يتقاسم هؤلاء المجندون لحرب الإسلام نواحي الفكر الإسلامي من عقيدة وتاريخ وتشريع وسياسة وأخلاق في تنظيم اختصاصي منسق، ثم تخط كل جماعة منهم كيداً وتزويراً ودساً فيما اختصت به وتفرغت له.

بل لقد جزَّؤوا الفن الواحد نفسه إلى عدة شعب وفروع ثم راحوا يتقاسمون هذه الشُّعَبَ فيما بينهم ليتأتى السبيل إلى الخلط الخفي الدقيق فيها في سهولة ويسر، كما فعلوا ذلك بفن العقيدة مثلاً، أو التشريع أو التاريخ.

هذا كله، على حين يسير المسلمون في سبيل رد هذه الحرب في خبط عشوائي غير منظم. وتالله لولا أن حقائق الإسلام نفسها هي التي تبدد الباطل الذي يحاط من حولها بخفي حفظ الله وتأييده، لذبّح الإسلام في أحضان المسلمين وهم سادرون، أو هائجون، أو متخاصمون!

❊ ❊ ❊

الشباب اليوم أصدق إسلاماً، وأنضج وعياً، وأشد حماساً، وأكثر عدداً، من أي عهد (قريب) مضى، ولكن فقدان القيادة الرشيدة والثقة المتبادلة والاختصاص الواضح - جعل الكثرة

لا تغني شيئاً، والحماس لا يحرك ساكناً والوعي لا يثمر أي نتيجة!... هذه حقيقة يجب ألَّا تحتبس في الصدور والأذهان، ويجب ألَّا نضيق ذرعاً لدى كشفها والإقرار بها إن أردنا للإسلام خيراً وصدقنا في الدعوة إلى دين الله.

وحينما تتلاقى مشاعر المسلمين على معالجة هذه العيوب الثلاثة لديهم في صدق وإخلاص، يرى المسلمون - بل الناس كلهم - كيف أن الإسلام هو أعظم قوة وأعز رسالة وأقوم مبدأ على وجه الأرض.

أما إن ظلوا على ما هم عليه، فستؤول الكثرة إلى قلة، وستنقلب الحماسة وهناً وضعفاً، وستذبل جذوة الإيمان في صدور هؤلاء الشبان... وسيسألنا الله عن ضيعة الإسلام وأهله يوم لا تغني قيادة ولا كتابة ولا خطابة ولا اختصاص....

ترى ما هو قرار محكمة النور والظلام، في هذا الذي تم بيانه؟ وأين هو مكان النور أو الظلام من هذه الأزمة التي وصفتها؟ وما هو مكان الذين يسعون سعيهم للتغلب عليها، بالطريقة التي وصفت، أهو في مقرّ المتنورين أم الظلاميين؟

obeikandl.com